الإرهاب العائلي:
استغلال خلايا "التجنيد الآمن" لرأس المال الاجتماعي المظلم

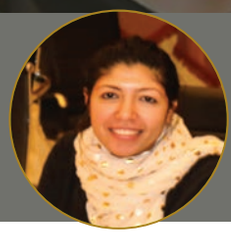

هالة الحفناوي

رئيس وحدة تقييم التفاعلات المجتمعية - مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة

يكشف استقراء عدد كبير من العمليات الإرهابية التي وقعت خلال الأعوام الثلاثة الماضية بروز نمط جديد من الإرهاب، يمكن أن يطلق عليه اسم "الإرهاب العائلي"، أي أن القائمين على تنفيذ العملية الإرهابية، أو بعضاً منهم، تربط بينهم صلات عائلية.

وقد وضح ذلك بصورة أساسية في العديد من العمليات الإرهابية، كما في قيام الأخوان الشيشانيان تسارنايف بتفجيرات ماراثون بوسطن في أبريل 2013، واشتراك الأخوان كواشي في تفجيرات صحيفة تشارلي إبدو في يناير 2015، فضلاً عن تنفيذ الأخوين عبدالسلام، بالاشتراك مع آخرين، هجمات باريس في نوفمبر 2015، وتورط الزوجين، سيد رضوان فاروق وتشافين مالك في إطلاق النار في سان برناردينو في ديسمبر 2015.

ويضيف "الإرهاب العائلي" تعقيداً لظاهرة الإرهاب، ويزيد تناقضها، ففي الوقت الذي ركزت معظم التحليلات المعنية بالإرهاب على التجنيد الافتراضي، الذي يتم من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، باعتبارها الاستراتيجية الأكثر نجاحاً في الدعاية والتجنيد للجماعات الإرهابية، فإن الروابط الأسرية وعلاقات القرابة صارت هي الأخرى تلعب دوراً متصاعداً في التجنيد وإعادة إنتاج الإرهاب وتوريث التطرف من جيل لآخر.

ويسعى هذا التحليل إلى إلقاء الضوء على الإرهاب العائلي من خلال الإشارة إلى العديد من الأمثلة الحديثة لهذا النمط من الإرهاب، وكذلك بيان التحديات التي يفرضها، وأسباب لجوء الجماعات الإرهابية للتجنيد العائلي، وأخيراً تقديم بعض التوصيات التي تهدف لمواجهتها.

أولاً: عودة الإرهاب العائلي

أشار جيه. أم. بيرجير، أحد الخبراء المتخصصين في دراسات التطرف، إلى أن التطرف العنيف ينتشر من خلال العلاقات الاجتماعية، وبالنسبة للعديد من الأفراد، فإن الإخوة والأقارب يشكلون جزءاً كبيراً من حياتهم الاجتماعية، خاصة أنه يمكن للفرد التحدث إلى أخيه بأريحية عن أشياء لا يمكنه التحدث عنها مع آخرين[1].

وقد أشارت العديد من الدراسات مؤخراً إلى هذا العامل، وحاولت أن تحدد وزنه في العمليات الإرهابية، منها على سبيل المثال، ما أشارت إليه دراسة أمريكية، تم إجراؤها على حوالي 474 مقاتلاً أجنبياً، ينتمون لخمسة وعشرين دولة غربية، فقد وجدت أن حوالي ثلثهم لديه صلات عائلية مع أحد

الإرهابيين، سواء كان هؤلاء يقاتلون الآن إلى جانب التنظيمات الإرهابية في سوريا والعراق، أو من خلال الزواج، أو من خلال مشاركة أحد أقاربهم في عمليات "جهادية" في مناطق صراعية خلال فترات سابقة[2].

وأشار تقرير تابع للاستخبارات للألمانية أن 69 من 378 من المقاتلين الألمان الذين سافروا إلى سوريا للانضمام للجماعات الإرهابية، كانوا بصحبة أحد أقاربهم، وهو ما يعادل نسبة 18%[3].

ويبدو من حالات الإرهاب التاريخية أن "الإرهاب العائلي" ليس بالظاهرة الجديدة، فوفقاً لدراسة تم إعدادها على جماعة "الألوية الحمراء" الإيطالية الإرهابية في السبعينيات والثمانينيات، وجدت أن 298 من أصل 1214 إرهابياً كانوا يرتبطون بعلاقة عائلية مع شخص واحد على الأقل داخل الجماعة الإرهابية، وعادة ما كانت علاقة زواج أو أخوة، أي حوالي 24.5% من إجمالي عدد أفراد الجماعة الإرهابية، بل أن اثنين ممن أنشأوا حركة الألوية الحمر، وهما رياناتو كوريشيو ومارجريتا كاجول كانا زوجين[4].

وأجرى "مارك ساجمان" منذ عشر سنوات سابقة، دراسة على حوالي 172 من أعضاء الجماعات المتطرفة، ووجد أن 14% منهم لديه روابط عائلية بمتطرفين آخرين[5].

ويمكن تفسير هذا على أساس سعي الجماعات الإرهابية لتوثيق العلاقات بين عناصرها والحفاظ على قوة التنظيم، وضمان عدم اختراقه، من خلال علاقات القرابة والمصاهرة، وقد اتبع هذه السياسة المجاهدون الأفغان الذين كانوا يزوجون بناتهم أو أخواتهم أو أقربائهم لأحد عناصر الجماعة الجهادية للحفاظ على شبكة العلاقات التقليدية وتعميقها، فعلى سبيل المثال، تزوج الجزائري "عبدالله أنس" من ابنة قائده الفلسطيني "عبدالله عزام"[6]، وكذلك زوّج أبو مصعب الزرقاوي أخته لخالد مصطفى "أبو قاسم" والذي كان أحد المقربين منه، وصاحبه خلال الفترة الممتدة من عام 1989 وحتى 2001.

ولا تستخدم صلات القرابة للدفع بالأقرباء للانتماء للجماعات المتطرفة فحسب، بل أن منفذي العملية الإرهابية الواحدة عادة ما تربطهم صلات قرابة، فيما عرف حديثاً في الكتابات الغربية بالإرهاب العائلي (Family Affiliated Terrorism)، فقد كان من بين التسعة عشر إرهابياً، الذين قاموا بتنفيذ عمليات 11 ديسمبر 2001، كان هناك ستة أشخاص تربطهم علاقات أخوية.

وفي العام 2003، أرسل أبو مصعب الزرقاوي والد زوجته لكي يقوم بهجوم انتحاري لاغتيال آية الله محمد باقر الحكيم في مدينة النجف. وفي العام 2005، أرسل تنظيم القاعدة في العراق الزوجين العراقيين حسين الشمري وساجدة الرشاوي لتنفيذ تفجيرات إرهابية في عمان بالأردن، وفي العام ذاته سافرت موريل ديجوك البلجيكية مع زوجها، إسلام جوريس إلى العراق لتنفيذ عملية انتحارية ضد موكب أمريكي في جنوب بغداد.

وحديثاً، تكررت العمليات الإرهابية المنفذة على يد أشقاء، فقد نفذ الشقيقان إبراهيم وخالد "بكراوي" هجومين إرهابيين متزامنين في بروكسل في مارس 2016[7] أسفرا عن مقتل 34 شخصاً، وقد ارتكب الشقيقان العنزي جرائم باسم "داعش" داخل السعودية، منها قتل مواطنين ورجل شرطة.

ثانياً: رأس المال الاجتماعي «المضاد»

يفترض بعض الخبراء والمتخصصين في مجال مكافحة الإرهاب والتطرف أنه في أغلب الحالات يتحول الفرد إلى حالة التطرف العنيف من خلال "وساطة أيدولوجية" يصاحبها التزام الأفراد بالدفاع عن قضية معينة بصورة متطرفة، ولكن هذا الافتراض يعارضه البعض الآخر، وذلك بالاستناد إلى عدد من الحالات التي تبنى أفرادها التطرف فجأة، كما في حالة الأخوان تسارنايف.

ويذهب أنصار هذا الاتجاه للقول إن هذا التحول السريع للتطرف غالباً ما يرتبط بتطرف الفرد من خلال أحد أفراد عائلته أو أصدقائه المقربين، خاصة إذا كان هذا الفرد سهل الانقياد، فضلاً عن وجود رصيد من الثقة والروابط الشخصية القوية بينهما[8]، وهو ما يعرف بالتجنيد الثنائي (Peer to Peer Radicalization).

ووفقاً لهذا الرأي، فإن الدوافع الشخصية لا تلعب دوراً يذكر في تحول الأفراد للتطرف[9]، بل صلات القرابة أو الصداقة، وبالتالي فإن الفرد لم يكن ليتطرف لو لم يكن طرفاً في تلك العلاقة العائلية أو الصداقة.

وينشط استخدام هذا النمط من التجنيد في الدول الغربية، خاصة في الدول التي تتمتع بوجود أجهزة أمنية قوية، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تفرضان رقابة على أنشطة الجماعات المتطرفة، التي تسعى لتجنيد الأفراد، فيصبح التجنيد في نطاق شبكة العلاقات العائلية والصداقة هو البديل الموثوق والآمن، فيما يمكن أن يطلق عليه "التجنيد الآمن".

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قدرة الجماعات الإرهابية على التجنيد الآمن من خلال صلات القرابة والصداقة يرجع إلى ما أطلق عليه علماء الاجتماع "رأس المال الاجتماعي المضاد" (Unsocial Capital)، أو رأس المال الاجتماعي غير المدني (Uncivil Social Capital)، أو الجانب المظلم من رأس المال الاجتماعي (the dark side of social capital) أو رأس المال الاجتماعي المنحرف (Perverse social capital) وغيرها من المصطلحات التي تدل على المعنى ذاته[10].

ولا تنفرد الجماعات الإرهابية وحدها باستغلال رأس المال الاجتماعي المضاد، وتعظيم الاستفادة من شبكة العلاقات التقليدية المكونة من الروابط العائلية وروابط الصداقة بالأساس، بل أن أغلب الجماعات المسلحة من دول الدول تتبع ذات الاستراتيجية، وهي الاستراتيجية التي تساعد على تماسك تلك التنظيمات، وصعوبة اختراقها.

وقد ظهرت هذه السمة العائلية لتنظيمات المافيا على سبيل المثال، فكانوا يعتمدون على العلاقات العائلية وصلات القرابة والصداقة في تأسيسها وضم منتسبين جدد، فاختيارهم كان يقوم دوماً على الثقة ورأس المال الاجتماعي، لضمان الولاء والالتزام بمبادئ المافيا التي كان من أهمها "الصمت" وعدم الإدلاء بأية معلومات للأجهزة الأمنية في حالة القبض على أي من عناصرها، حتى لو تعرضوا لعقوبات مغلظة، خاصة أن تلك الجماعات تقوم بتوفير الرعاية لأسرهم طول فترة سجنهم.

وفي هذا الإطار، نشرت دراسة حديثة بعنوان "بناء الإرهاب من خلال الروابط الاجتماعية: الجانب المظلم لرأس المال الاجتماعي"، والتي تلقي الضوء على رأس المال الاجتماعي للجماعات الإرهابية، وتعتبرها الأساس الذي تقوم عليه الجماعة الإرهابية ومصدر قوتها، وقد أشارت الدراسة إلى المصادر المحتملة لرأس المال الاجتماعي على النحو التالي:

• **العلاقات العائلية:** التي تحرص الجماعة على خلقها، وضمان استمراريتها من خلال علاقات المصاهرة.

• **علاقات الصداقة:** التي تسمح بنشر الفكر الأيديولوجي، فضلاً عن تعميق الشعور بالمسؤولية تجاه أفراد التنظيم.

وأشارت الدراسة، في هذا الإطار، إلى أن نجاح العمليات الإرهابية المشتركة يكون في الغالب رهناً بدرجة التوافق الشخصي بين المنفذين، والتي تتطلب درجة توافق تتراوح نسبيها بين 80 و100% كي تنجح العملية الإرهابية.

• **القيم المشتركة:** ولا يقصد بالقيم هنا المثل العليا، بل القناعات والأحكام المشتركة التي تعرف الصواب والخطأ بين مجموعة الأفراد، حتى لو كانت هذه القناعات منحرفة وخاطئة، إذ إن تبنيهم تلك القيم والأحكام الخاطئة يساعد على زيادة التضامن داخل الجماعة، وإقبال منتسبيها على تنفيذ عمليات التنظيم الإرهابية دفاعاً عن قضيتهم التي يعتقدون في صحتها، ولو كانت زائفة[11]، ومن جهة ثانية، فإن كثرة الاحتكاك وترديد القيم ذاتها يكون ما يعرف بالانغلاق المعرفي (Cognitive Closure) أو المجتمع المغلق، الذي يتعايش في دائرة الفكر المتطرف نفسها ولا يجادلها. ويصعب أن تخترق الأفكار المضادة حائط أيدولوجية شبكة العلاقات العائلية[12].

ثالثاً: سهولة الانتشار، صعوبة الاختراق

كما سبقت الإشارة، تساعد علاقات القرابة وصلات الصداقة بين أعضاء الجماعات المتطرفة على القيام بالتجنيد الآمن وتنفيذ الأنشطة الإرهابية، وفي إطار من الثقة التامة[13]، ويعد تجنيد الأفراد من شبكة العلاقات الشخصية القائمة بالفعل أسهل، وأكثر احتمالية للحدوث لعدة أسباب أهمها:

1- الخلفية الاجتماعية المشتركة: عادة ما يربط "المتطرف" بالأشخاص من شبكة العلاقات العائلية، أو الصداقة القديمة ببعض القناعات أو الخلفيات الاجتماعية المشتركة، التي تشكل بصورة تلقائية هوية جماعية بينهم، ومن السهل تجنيد أشخاص يجمعهم شعور مشترك بالوحدة والهوية، نظراً لأن تجنيد أشخاص غرباء يتطلب ابتداءً خلق هوية مشتركة جديدة مع أشخاص غرباء تماماً عنهم[14].

2- المناخ الآمن نسبياً: إذ إن الاجتماعات المتكررة بين الأفراد تجمعهم القرابة أو الصداقة لا يثير شك الأجهزة الأمنية، كما أنه يساعد على تبادل الأفكار بين المتطرف والفرد المراد تجنيده بأريحية، ويعطي للمتطرف الوقت الكافي لغرس الأفكار المتطرفة تدريجياً، واستغلال العاطفة والاحترام المعتمدة على عمق العلاقة بين الطرفين.

3- ضمان السرية: فالروابط العائلية داخل الجماعات المتطرفة تضمن ولاء منتسبيها، كما يولد الحذر والشك تجاه الغرباء، وهو مبدأ مهم لدى الجماعات المتطرفة. ويعد ذلك أحد الأسباب التي تدفع المتطرفين لطرق باب العائلة والأصدقاء أولاً للتجنيد، وذلك لتجنب تداعيات احتمال التحدث مع الشخص الخطأ، والذي قد يقوم بالإبلاغ عنه للسلطات[15].

> يضيف "الإرهاب العائلي" تعقيداً لظاهرة الإرهاب، ففي الوقت الذي ركزت معظم التحليلات على التجنيد الافتراضي، الذي يتم من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، باعتبارها الاستراتيجية الأكثر نجاحاً، فإن الروابط الاجتماعية التقليدية تلعب دوراً متصاعداً في إعادة إنتاج الإرهاب وتوريث التطرف من جيل لآخر.

4- تجنيد الكتلة: تستفيد الجماعات المتطرفة من "تجنيد الكتلة" (Bloc Recruitment)، ويقصد بذلك سعي المتطرفين لتجنيد الأفراد من خلال الجماعات المنظمة، التي تدافع عن قضية معينة، ويحقق هذا ميزة للجماعات الإرهابية، وهو أنه إذا ما تم إقناع عدة أشخاص من هذه المجموعة باعتناق التطرف، وأعلنوا التزامهم نحو القضية، فمن الصعب أن يتخلف باقي أفراد المجموعة، وهو ما يرجع لعدة أسباب نفسية منها، ضغط الأقران، والتفكير الجماعي، وحب الإبقاء على علاقة القرابة أو الصداقة، فضلاً عن الشعور بالذنب من التخلف عن المجموعة والشعور بالعزلة[16]، وينطبق هذا بصورة أساسية على الروابط العائلية.

5- الإلمام بمفاتيح الشخص المراد تجنيده: إذ إن التأثير في أفراد العائلة والأصدقاء ليس بالأمر الصعب، مع الأخذ في الاعتبار تاريخ العلاقة بين الطرفين التي تعطي الفرصة للإلمام بمفاتيح الشخصية ومواطن التأثير فيها وتوجيهها.

6- تعاون أفضل: تشير بعض التحليلات الأمنية إلى أن جودة وكفاءة القدرات التكتيكية التي يكتسبها الشخص المتطرف من خلال العلاقات العائلية تكون أقوى بكثير من تلك التي يتم اكتسابها عن أي طريق آخر.

وعلى الجانب الآخر يضيف الإرهاب العائلي قيوداً وتحديات أمنية إضافية في مواجهة الأجهزة الأمنية، خاصة أن تفاعلاته تتم في إطار لا يثير شكوكاً من أي نوع. فوفقاً

لجون كوهين المسؤول السابق عن مكافحة الإرهاب في وزارة الأمن الداخلي بالولايات المتحدة، فإن قدرات مكافحة الإرهاب التقليدية مصممة على أساس التقاط الاتصالات والتفاعلات بين هياكل القيادة والتحكم في المنظمات الإرهابية والمهاجمين[17].

وبناء على ما سبق، فإن الخلايا الإرهابية المكونة من شخصين، على سبيل المثال، كالزوج وزوجته، أو الأخوين، يصعب، إن لم يكن من المستحيل، تتبعهم أو الشك فيهم من بين ملايين الناس، إذ تكمن قوة الإرهاب العائلي وخطورته في قدرته على إحداث ضرر كبير من دون الانكشاف بسبب التفاعلات التي تبدو طبيعية بين أطراف الخلية الواحدة، ومن ثم تعد خلايا الإرهاب العائلي الصغيرة بخطرة الذئاب المنفردة نفسها مع وجود أيد مساعدة، الأمر الذي يزيد المخاطر الأمنية المترتبة، مع صعوبة الانكشاف في الوقت ذاته.

ومن جهة ثانية، فإن الإرهاب العائلي يصعب ويقلل من احتمالات تعاون العائلة مع أجهزة الأمن، فنادراً ما تقوم العائلة أو الأصدقاء المقربون بالإبلاغ عن قريبهم الذي ينوي القيام بتفجيرات أو يمارس أي أعمال عنيفة أخرى، حتى وإن لم ينضموا له، فالعائلة دائماً تكون الملاذ الآمن للمتطرف.

الخاتمة

يفرض الإرهاب العائلي تحدياً للأطر التفسيرية التي يعتمد عليها الأمن في تحليله للإرهاب، فالتركيز على مدخل الأيدولوجيا أو العوامل المادية والبروباجندا لم يعد كافياً لتفسير أنماط الإرهاب، خاصة مع لعب العوامل الاجتماعية دوراً في الانضمام للجماعات الإرهابية، وهو ما يتطلب التركيز على ذلك الجانب الجديد.

وتشير الدراسات المتتالية إلى أن هذا الاتجاه آخذ في التصاعد، فهناك محاولات لتجنيد أسر بأكملها في أوروبا، فعلى سبيل المثال، لوحظ أن التجنيد القائم على العائلة والأصدقاء كان يمارس في بلجيكا على مرحلتين، من خلال مجموعة تعرف باسم "الشريعة لبلجيكا"، والتي أنشأها الإرهابي فؤاد بالقاسم، وقد ركزت هذه الشبكة على استهداف المسلمين من الأصول المغربية، وما أن نجحت في تجنيدهم وتهجيرهم إلى سوريا، حتى قامت بالتواصل مع أقاربهم وأصدقائهم عبر الإنترنت محاولة إقناعهم بالانضمام.

ومع التسليم بصعوبة اختراق هذا النمط الجديد من الإرهاب، فإنه يمكن أن تسعى الأجهزة الأمنية للحد من هذا النمط الجديد من خلال إعطاء الحوافز المناسبة للأسر لكي تقوم بالإبلاغ عن أفرادها الذين انضموا للجماعات المتطرفة، وذلك من خلال تخفيف العقوبة الموقعة عليهم في حال القبض عليهم مبكراً قبل تنفيذ أي عملية إرهابية، وأنه سيتم إخضاعه لبرامج تهدف لمراجعة أفكاره المتطرفة، تمهيداً لإعادة إدماجه في المجتمع.

ومن جهة ثانية، فإن هذا الأسلوب قد يكون فعالاً كذلك في مواجهة الذئاب المنفردة، ففي دراسة أجرتها جامعة بنسلفانيا الحكومية على حوالي 120 ذئباً منفرداً، ينتمون لمختلف الأيديولوجيات والأديان، وجدت أن 64% منهم، وإن قاموا بعملية إرهابية بصورة منفردة، إلا أنهم قاموا بإخبار أحد أفراد عائلتهم أو أصدقائهم بنيته في القيام بعملية إرهابية[18]، وهو ما يكشف الدور البارز الذي تلعبه الروابط الاجتماعية بغض النظر عن ديانة الإرهابيين.

وأخيراً، فإنه ينبغي على الحكومات أن تضع برامج توجه اهتمامها للأسر التي انضم بعض أفرادها للجماعات الإرهابية، وذلك من خلال توفير الدعم المادي والمعنوي لهم، تجنباً لانضمام مزيد من أفرادها إلى الجماعات المتطرفة.

1- Jim Yardley & others, As Siblings Again Unite to Unleash Terror, Experts Ask What Drives Them, **The New York Times**, March 23, 2016, accessible at: http://goo.gl/C3UUbw

2- Peter Bergen, Courtney Schuster & David, ISIS in the west: the new faces of extremism, **New America**, November 2015, accessible at: https://goo.gl/uB31bo

3- Mohammed M. Hafez, The Ties That Bind: How Terrorists Exploit Family Bonds, **CTC sentinel**, volume 9, issue 2, February 2016, p. 15.

4- **Ibid**., p. 15.

5- Mohammed M. Hafez, **op.cit**., p. 15.

6- **Ibid**., p. 15.

7- The Outsize Role of Brothers in Terrorist Plots, The Outsize Role of Brothers in Terrorist Plots, **The New York Times**, accessible at: http://www.nytimes.com/interactive/2016/03/23/world/brothers-terrorism.html

8- Mohammed M. Hafez, **op.cit**. p. 16.

9- **Ibid**., p. 16.

10- Enzo Nussio & Ben Oppenheim, anti-social capital in former members of Non- state armed groups: a case study of Colombia, **Studies in Conflict & Terrorism**, 2014, p. 1002.

11- هايدي عصمت، الجانب المظلم: كيف تؤسس الجماعات الإرهابية رأس مالها الاجتماعي، (عرض لدراسة أمريكية بعنوان: بناء الإرهاب من الروابط الاجتماعية: الجانب المظلم لرأس المال الاجتماعي)، **المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية القاهرة**، 29 يونيو 2015، متاحة على: http://goo.gl/ls4zko

12- Dean Alexander, Family linked extremism-terrorism and how to combat it, **The state journal register**, April 23, 2013, accessible at: http://www.sj-r.com/article/20130423/NEWS/304239806

13- **Ibid**

14- Mohammed M. Hafez, **op.cit**., p. 17.

15- **Ibid**., pp. 16 – 17.

16- **Ibid**., pp. 16.

17- Jim Yardley, Rukmini Callimachi and Scott Shane, As Siblings Again Unite to Unleash Terror, Experts Ask What Drives Them, **The New York Times**, march 23, 2016, accessible at: http://goo.gl/nAlyiV

18- Jason Burke, 'Jihad by family': Why are terrorist cells often made up of brothers? **The guardian**, 17 November, 2015, accessible at: http://www.theguardian.com/world/2015/nov/17/jihad-by-family-terrorism-relatives-isis-al-qaeda